مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ النَّبَإِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة النّبأ

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة النبأ

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٥
أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا
ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣
وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ١٦ ﴾

ابتدأت سورة النبأ بسؤال استنكار عن سؤال المشركين في شأن ما سألوا، وتساءلوا فيما بينهم. وليتلوه تهويل وتعظيم ذلك الشأن الذي تساءلوا عنه. فقال سبحانه وتعالى ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن أي شيء يتساءل هؤلاء؟ وعن أي أمر وشأن يسأل بعضهم بعضاً؟ وذلك من باب الاستغراب، والاستبعاد منهم. وهنا لم يذكر السياق الكريم ما كانوا فيه يتساءلون، فأورده تبارك وتعالى بصيغة الاستفهام، الذي لم يبين محتواه، ليشد الانتباه، وحتى تتوجه إليه عقولهم وأذهانهم، وتلتفت إليه قلوبهم. ليعطي قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ التشويق للمتابعة التي تكشف موطن تساؤلهم، وعظيم علم الله تعالى بهم، وبحالهم، وعما تساءلوا فيه.

ثم قال تبارك وتعالى تفخيماً وتعظيماً لهذا الذي فيه يتساءلون ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إنهم يتساءلون عن خبر عظيم. والنبأ يدل على الخبر المهم، والخبر الوجيه، والعظيم، والذي تتعاظم أهمية معرفته. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى: النبأ خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم، أو غلبة ظن. ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة. وحق الخبر الذي يُقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر[١] إنهم يتساءلون عن خبر عظيم. فأورده الله تعالى موصوفاً بالعظمة ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ليزداد التشويق في المتابعة، من أجل معرفة ماهية هذا النبأ الموصوف بالعظمة.

(١) الراغب اصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٨١)

ثم وصفه تبارك وتعالى بما يبين أنه من عظمته وشدته عليهم أنه أشغلهم باختلافهم فيه. فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴾ هذا النبأ الذي أشغلهم حتى وصل بهم الأمر إلى اختلافهم في شأنه. أي: احتاروا فيه، بين مصدق ومكذب به. فخالف فيه بعضهم بعضاً. مما يدل على أنه أبهرهم، وجعل أحاديثهم بينهم مُنصبَّه على هذا النبأ العظيم. فاستخدم البيان الكريم أسلوب التشويق لإفادة التعظيم لهذا النبأ الذي أشغل الناس. فأصبح حديث مجالسهم وملتقياتهم، فمنهم المصدق به، ومنهم المكذب، ومنهم الذي أصابته الحيرة والذهول. فهو أسلوب في غاية التشويق. مما يبين عظمة القرآن العظيم في أساليب بيانه. التي تؤكد أنه لا يمكن إلا أن يكون من الله العزيز الحكيم.

وقال العلماء عن هذا الذي هم فيه مختلفون، بين مصدق ومكذب أنه القرآن، وقيل يوم القيامة، وما فيه من البعث والحساب والجزاء. وقيل مبعثه صلى الله عليه وسلم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو القرآن، دليله قوله تعالى ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴾ فالقرآن نبأ وخبر وقصص، وهو نبأ عظيم الشأن[١] وقال مجاهد، وقتادة عن هذا النبأ: أنه القرآن، وقيل: البعث بعد الموت. قاله قتادة أيضاً. وقال ابن زيد: يوم القيامة[٢] وقيل: أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم، حكاه الزجاج[٣] أي بمعنى: ما هو شأن بعثه بالرسالة، وما نزل عليه من القرآن العظيم. فمن دقة وإعجاز تراكيب السياق الكريم، فقد اجتمعت فيه تلك الدلالات غير المتعارضة، فهم في ذهول من القرآن العظيم، ومما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه منهم عليه الصلاة والسلام، وكذلك هم في ذهول من أن هناك بعث وحساب وجزاء.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الرد على الذين اختلفوا على المصدقين به، فكذبوا به، وخالفوا الحق، وخالفوا مَن صَدَّق وآمن به. فقال تعالى ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾ أي: حتماً مؤكداً بأن المكذبين سيعلمون حين يظهر لهم ما سيفعل الله تعالى بهم. فحينها سيعلمون عاقبة تكذيبهم للقرآن العظيم، وللرسول صلى الله عليه وسلم، وللبعث، ولجميع حجج الله تعالى ودينه القويم.

وابتدأ البيان الكريم بدلالة ﴿كَلَّا﴾ التي تنفي عن المنكرين صواب نكرانهم الذي اختلفوا فيه مع المصدقين للحق، وبطلان إنكارهم للنبوة والقرآن العظيم، والبعث والجزاء. ولتفيد تقرير إبطال اعتقادهم الفاسد، ورداً وجواباً لهم، وكذلك ردعاً وزجراً لهم. فاستوفى موقع ﴿كَلَّا﴾ كل ذلك. مما يبين عظمة البيان في تحقيق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١١/١٩)
(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦/٢٤)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦١/٨)

كمال مقاصده بأدق وأجزل الأساليب البيانية التي تُظهر إعجاز القرآن حتى في نظم بيانه، وجزالة أسلوبه، وقوة حججه.

ومن حكمته عَزَّ وجل أن غَيَّب الذي سيعلمون ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ليفيد التعظيم والتهويل له، ولإظهار قوة الزجر، ولجعلهم في خوف دائم بسبب غياب موعده، وليشمل ما قد يكون لهم في الدنيا، وما سيكون لهم في الآخرة. وهذا من عظيم الأسلوب وقوة البيان الدال على قوة الزجر لهم، ليعيدوا تفكيرهم.

ثم أكد تبارك وتعالى صدق ما يتساءلون فيه، ووقوع ما ينكرون، وما اختلفوا فيه من خلال الارتقاء بالتهديد إلى التأكيد، أي: بأسلوب الجزم المؤكد، بقوله عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أي: حقاً وصدقاً ليتأكد لهم ذلك، بما يفيد: ليس الأمر كما يقولون من التكذيب، فإنهم سيرون عاقبة تكذيبهم، الْمُؤَكِّد لِصدق ما جاءهم من الحق. فهو وعيد بعد وعيد. لإظهار الردع والزجر لهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ارتقاء في الوعيد، فإن ﴿ثُمَّ﴾ لما عَطفت الجملة، فهي للترتيب الرتبي، وهو أن مدلول الجملة التي بعدها أرقى رتبة في العرض من مضمون الجملة التي قبلها[١] مما يبين قوة موعظة الله تعالى الزاجرة لهم.

ثم ينقلهم تبارك وتعالى إلى آياته الكونية، ليدبروا ما فيها من الآيات الواعظة، المبينة لعظيم قدرة الله تعالى في كل شيء، والتي منها البعث بعد الموت. فقال تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أليس ربكم بفضله وعظيم تدبيره عَزَّ وجل جعل لكم الأرض منبسطة، ممهدة، بفيض تدبيره وعظيم حكمته، لتستقروا عليها، فتكون لكم مستقراً. وبالتالي كيف تنكرون حججه الكونية، وآياته المتلوة عليكم؟ فتنكرون القرآن والبعث، وتعبدون غيره، ممن لم يصنع لكم شيئاً. الأمر الذي يستوجب عليكم مراجعة شأنكم، وتشكروا ربكم بطاعته على هذا الإنعام، وهذا التكريم المخصوص به هذا الإنسان. وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والتصديق بالقرآن والبعث والنشور والحساب والجزاء.

وهو استفهام تعجب في تناقض حالهم مع آيات ربهم ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ استفهام يستثير التأمل والتفكر، وأن عليهم الاستدلال بكمال القدرة فيما يُشاهدون ويتعايشون معه على علم الغيب الذي يتلوه عليكم رسوله صلى الله عليه وسلم من القرآن العظيم عن نبأ وشأن البعث بعد الموت. مما يبين لفت الانتباه إلى خلق الأرض واستوائها، وتقرير ذلك بطريقة وأسلوب الاستفهام، الذي يستنهض الفكر في التأمل والتدبر، ليعود إلى الحق والرشد والرشاد. فيعلم الإنسان كيف يفكر، وكيف يرتقي بعقله، وكيف يقيس الغيب الذي يُخبر الله تعالى به عباده بالمقاييس الكونية الظاهرة. فإن ربكم تبارك وتعالى هو الذي جعل لكم الأرض مفروشة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/٣٩٠)

مبسوطة، لتتوافق مع حياة الإنسان، ومتطلباته. فعملية التوافق في حد ذاتها آية عظيمة على كمال قدرة الله عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان سعة الإنعام في السياق على العباد ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴾ أي: فجعلها مهاداً، ممهدة مبسوطة لكم ولكل شيء يتعايش معكم. لتستوعب الجميع من غير استثناء، ولتستوعب كل من على الأرض، مبيناً صفة هذه الأرض، بأنها ﴿ مِهَٰدٗا ﴾ أي: ممهدة كالفراش، فتتمكنون فيها من القرار والتنقل، والبناء، فتسكنوها وتزرعون عليها، على أحسن استقرار لها، فلا منغصات لكم فيها. فيستحيل أن يكون ذلك التوافق من غير خالق، ولتكون النتيجة من هذا الاستدلال هو: كيف تعبدون غيره، وكيف تُنَصِّبُون غيره إلهاً؟ فكيف تعبدون الضعيف وتتركون الخالق القوي المنعم عليكم بهذه الأرض المستوية؟ وكيف تنكرون البعث مع هذه الدلائل الكونية العظيمة؟ فهو تقرير يستثر العقل نحو مراجعة التفكير، وإعادة التأمل، وما يترتب عليه من تصحيح الاعتقاد، والاستسلام للخالق العظيم.

فهو إخبار بحقيقة تستثير عقل العقلاء، الراغبين في الحق. بل لم يستخدم السياق كلمة: خَلَق، بل استخدم لفظ جعل ﴿ نَجۡعَلِ ﴾ لأن الخلق هو الإيجاد، ولكن: جعل يفيد العموم، فيشمل: دلالة خلق وصَنَعَ، وأنشأ وصَيَّر وسخر، كما ذكر الراغب الأصفهاني وغيره رحمهم الله تعالى: إذ هو أعم من فَعَلَ وصنع وسائر أخواتها[١] وجعل، أي: عَمِل وهيأ وصَيَّر. وجعل: خلق[٢] فيفيد: صنع وخلق لكم، وصَيَّر لكم، وأوجد لكم، لتشمل دلالة ﴿ نَجۡعَلِ ﴾ الإيجاد والتسخير، وهي دقة بيانية، بل إعجاز بلاغي وبياني عظيم. ومن بديع السياق إسناد الفعل ﴿ نَجۡعَلِ ﴾ له تبارك وتعالى بحرف النون المتصدر مقدمة الفعل ﴿ نَجۡعَلِ ﴾ والعائد على الله تبارك وتعالى ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴾ فأفاد حصر ما بعدها من الخلق والتسخير والتدبير له تبارك وتعالى. فكل شيء في كتاب الله عَزَّ وجل معجز من كل وجه.

ثم عطف خلق الجبال على خلق الأرض. فقال تعالى ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴾ فجعل الجبال للأرض أوتاداً، أي: بمثابة الأوتاد التي تمسك الأشياء، كالأساس للبناء، فجعل الجبال تمسك الأرض حتى لا تضطرب. فإن تدبيرنا على هذا التكوين العظيم، يوضح ويبين لكم أيها الناس كمال قدرتنا على البعث. مما يثير جانب القياس

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٩٤)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (١١/١١٠-١١١)

عند الإنسان، بأن من خلق هذا الخلق، وبهذا التدبير العظيم، فإنه قادر على إعادة خلق هذا لإنسان من جديد كما هو، فإن قدرته جَلَّ جلاله أعظم من ذلك. وشواهد الحال تكفيكم في ذلك للإيمان بالغيب.

ثم ينقل تبارك وتعالى وجهة وتفكير وتأمل العباد إلى أنفسهم. فقال تعالى ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فقد خلقكم ربكم ذكوراً وإناثا، وأصنافاً، وألواناً. قال القرطبي رحمه الله تعالى عن معنى ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾: أي: أصنافاً: ذكراً وأنثى، وقيل: ألواناً، وقيل: يدخل في هذا كل زوج من قبيح وحسن، وطويل وقصير، لتختلف الأحوال، فيقع الاعتبار، فيشكر الفاضل، ويصبر المفضول[١] مما يثير التفكير في هذا التزاوج، وما يكون فيه من هذا التباين الذي يحدث به التكامل. فالأنثى مكملة للرجل، والفقير يُكمل نقصه بما عند الغني، والغني يُكمل ما ينقصه من الأعمال بأداء وعمل الفقير. فإنها سلسلة من التكامل التي لا تنقطع لمن أَوغَر في التفكير. ليتبين من أن هذا التدبير هو من الله تعالى القادر على كل شيء، والذي يجب ألا يُعْبَد إلا هو، وأن ما أخبر به من الغيب حقيقة، يجب الإيمان بها. وأن هذا القرآن بهذا العلم العظيم والدقيق؛ فإنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله عَزَّ في علاه، فلا يمكن أن يقوله إنسان، ولا اجتمعوا وتعاضدوا مع جنس الجن. كما قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

ثم يعطف سبحانه وتعالى حركة الإنسان وتقلبه، والتي منها نومه ويقظته. فيعطفها على ما سبق من خلقه وتدبيره تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي: ومن إنعامه عليكم أيها الناس أن جعل نومكم سكوناً وراحة لكم، فيتجدد لكم بالنوم كمال النشاط. والسبات هو السكون، والقطع. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والسبت والسبات هو السكون، ولذلك سُمّي السبت سبتاً، لأنه يوم راحة ودعة[٢] والنائم ينقطع عند نومه عما اعتاد عليه من الحركة في يقظته. وبالتالي أعطى السبات دلالة الراحة للبدن والفكر، فيستيقظ النائم وهو أحسن وأقوى نشاطاً مما كان عليه قبل نومه. وقد نسب عَزَّ وجل ما جعل من النوم له جَلَّ جلاله، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ فألصق الجعل بضمير المتكلم، الذي يفيد تعظيم ما دَبَّر لكم من النوم، وتعظيم الخالق الذي خلق، ودبر لكم النوم راحة لكم ولأبدانكم. فإن مَن تأمل ذلك وتدبر استعظم خلق الخالق وتدبيره، وكمال قدرته، التي تُثبت وجوب الإيمان بالغيب، فإن الشواهد تدل على الغائب.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٢/١٩)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٩/٢٤)

ومن إتمام الاستدلال وكماله يعطف عليه سبحانه وتعالى، خصيصة الليل بالستر. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ فإن حال الليل كاللباس لكم، لما فيه من التغطية والغشاء بظلامه عليكم. فَصَوَّرَ وشَبَّهَ حال الليل بأنه كاللباس، من الغطاء، والسكن، والهدوء، والانقطاع عن المتاعب إلى الراحة. وقد أوقع وتبارك وتعالى الجعل ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ على الليل، ليكون منه وبه اللباس الساتر.

بينما جعل لكم النهار للحركة وابتغاء الرزق، وقضاء صُنُوف حوائجكم، فقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ فجعلنا النهار بنوره المضيء للأرض وقتاً لطلب ما تعيشون به من الرزق، وقضاء حوائجكم بالذهاب والإياب. مما يستوجب منكم أيها الناس التفكير في هذا التدبير، وهذا التناسق بين حاجاتكم وأحوالكم وبين تدبير الله تعالى للكون، الذي حصل به هذا التوافق والتكيف العجيب، بما يستلزم منكم الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى، والتصديق بما جاءكم من الحق، وأن تشكروا ربكم بطاعته والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم. بل إن هذا البيان العظيم دليل على أن هذا القرآن بهذا العلم والتعليم هو من عند الله تبارك وتعالى، وإثبات عجز جنس الإنسان كلهم فيما لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله أبداً.

ثم من دقائق البيان أن عطف جملة ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ على جملة ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ لإظهار العلاقة الترابطية بينهما، ثم ذكر بعدها ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ وذلك لانفصال الليل عن النهار، وانفصال ما يكون في النهار عن الليل. بينما عطف النوم على الليل لوجود الترابط بينهما، فالليل هو محطة السكون والنوم، فورد العطف بينهما في نسق عظيم. وهذا من الإعجاز في السياق، وفي ترابط الكلام الذي لا ينتبه له الإنسان في حديثه وتعبيره وكلامه الشخصي مع غيره. فسبحان من أعجز ببيانه عباده. ليدل على أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المعجز من كل وجه.

ثم بعد هذا الاستدلال العظيم بخلق الأرض، والرواسي والأوتاد من الجبال، والليل والنوم، والنهار والمعاش، ينتقل البيان بالْمُخَاطَابين إلى دليل آخر، من خلال التأمل في ملكوت السماوات. فقال تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ أي: وشددنا فوقكم سبع سماوات ﴿ شِدَادًا ﴾ أي: قويات الخلق، ومحكمات البناء. وبما يفيد: ألم تشاهدوا بأبصاركم وبصائركم عظمة ما خلق الله تعالى من السماوات السبع، وكل واحدة هي فوق الأخرى. فلا تسقط عليها من قوة الإحكام. فإن مَن رأى ذلك أدرك حتماً عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه على كل شيء قدير. وبالتالي فكما أن هذا الملكوت حق، فكذلك الغيب الذي أخبر به سبحانه وتعالى هو حق، فدلائل المشاهدة حجة ودليل لحقيقة الغيب، ومنه يوم القيامة، والبعث والنشور، والحساب،

والجزاء، والجنة والنار. فليس هناك ما يدعو إلى تكذيب الحجج والبراهين التي أظهرها الله تعالى مع المرسلين، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال مقاتل رحمه الله تعالى: هي السماوات، غِلظ، كل سماء مَسِيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين مثل ذلك، وهي فوقكم يا بني آدم[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث في وصف السماوات، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام. وأنها سبع سماوات، وأن الأرض سبع أرضين[٢] فهن سبع سماوات متكاملات في الإتقان والكمال، حتى أن من يراها لا يجد فيها اضطراباً واختلافاً. فانتفى منها كل عيب، فإن من ينظر إليها ينبهر بجمالها ورصانتها وقوتها، وارتفاعها. بما يدل على عظمة الخالق عَزَّ وجل.

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى ما يتعلق بخلق السماوات أعقبها بذكر ما هو مرتبط بعلوها، وهي الشمس بضوئها الساطع. فقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّـاجًا ﴾ أي: ضياء بوهجها وأشعتها. فهو الذي أنشأ الشمس من العدم، وجعلها ضياء بوهجها وأشعتها، فيصبح النهار واضح المعالم، فيقضي فيه العباد مآربهم وحاجاتهم. وقد أسماه سبحانه وتعالى بأنه ﴿سِرَاجًا وَهَّـاجًا ﴾ لأن الضياء بالسراج أكثر إيضاحاً وبياناً لما يقع عليه السراج بوهجه. ومن صفته أنه وهاج. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ويُطلق الوهاج على المتلألئ، المضيء، وهو المراد هنا، لأن وصف وهاج أجرى على سراج، أي: سراجاً شديد الإضاءة[٣] فيدعو الله تعالى عباده بهذا البيان إلى التأمل والتفكر في عظمة خلق الشمس، بما يدل على عظمة ما خلق سبحانه وتعالى، وفائق قدرته في خلق ما يشاء، بهذه القوة من الضوء الذي يكشف حال الأرض بنور الشمس المتوهج. فإنها الدقة والقدرة العظيمة. بما يدل على عظمة الخالق العظيم، جَلَّ في علاه. وأنه رَبُّ كل شيء ومالكه، وأنه على كل شيء قدير.

ثم يخبر تبارك وتعالى بنعمة الأمطار التي يُنزلها على الأرض، فقال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ ألم تروا وتتفكروا وتنظروا إلى دلالة الماء الذي أنزله الله تعالى لكم بقدرته وحكمته من السماء؟ وأشار في هذه الآية الكريمة إلى مصدر الماء ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ التي هي السحاب، وقيل الرياح. فجمعت دلالة ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ بين السحاب، وبين الرياح، لأنها تستدر المطر من السحاب، فتجعله يُمطر. قال ابن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦١/٨)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٢/١)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٠٠/١٢)

الجوزي رحمه الله تعالى: وإنما قيل للرياح معصرات لأنها تستدر المطر[١] وهذا من دقائق البيان، بأن تستجمع الكلمة المراد بعينه، ومعه جميع متعلقاته، وبدقة فائقة في المعاني. بما يُظهر الإعجاز البياني في القرآن العظيم. ووصف تبارك وتعالى نزول الماء بصفة الثجاج ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ وهو الْمُنْصَبُّ بقوة وتتابع. لإفادة لفت الانتباه إلى قوة تدفقه، وتعاقب القطرات من المطر، فإذا بالأرض تسيل ماء في وقت يسير وقصير جداً.

وقد نسب عَزَّ وجل ما جعل من نزول المطر أو الماء له جَلَّ جلاله، فقال تبارك وتعالى ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فألصق الإنزال بضمير المتكلم، الذي يفيد تعظيم ما دَبَّر لكم من نزول الماء من المعصرات. فإن ربكم هو الذي ينزل المطر من السماء، وليس غيره ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ بما يثبت ويبين أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد ويُوحَّد في ربوبيته وألوهيته وعبادته وحده لا شريك له. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بفعل النزول، وبتعيين مكان النزول بأنه من المعصرات ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ وفي هذا البيان شد الانتباه إلى الارتفاع، وإلى السحاب الذي يتحرك في ذلك العلو العظيم، ليتدبر الْمُخَاطَب مقدار ارتفاع السحاب وعلوه في السماء، وسيره ومسيره ورحيله وتنقله من مكان إلى مكان، فلا يستطيع أحد من خلقه أن يتحكم في قدره ومقداره، ولا أن يمنعه أحد عن أحد، بل يمتد بالتفكير والتفكر إلى مقدار قلته وكثرته؛ فينزله بالقدر الذي يحتاجه العباد، وتستوعبه الأرض، فلا إجحاف فيه لتموت الأرض، ولا غزارة ليهلك الخلق به. مما يستثير في ذهن الْمُتأمِّل التساؤل عَمَّنْ هذا الذي قدر هذه المقاييس؟ فأنزله بمقدار ما تستوعبه الأرض، ثم يسوقه من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض، وينزل المطر على هيئة قطرات، لتجري به أودية وشعاب كالأنهار؛ أو أشد جرياناً منها، حتى جاء تسميته على حقيقته بالماء ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ ومن بديع البيان ودقته أن نسب الله تعالى إنزال المطر إليه ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ فنحن وليس غيرنا له القدرة على إنزال المطر من السماء، وما يسبقه من تبخر مياه البحار والمحيطات، وتكثيفه في السماء، وسوقه بالرياح من مكان إلى مكان. ومن دلالة قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ أنها تُنبه الْمُخَاطَب إلى أن الذي أنزل هذا المطر هو الله تعالى، بقدرته ومشيئته، لتنتفي جميع المعتقدات الفاسدة في نزول المطر بهذا الحصر والقصر في إنزال المطر على الله تعالى فقط.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٢/٨)

ثم يخبر تبارك وتعالى بشيء من منافع هذا الماء الممطر من المعصرات، فقال تعالى ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ لنخرج بهذا الماء الثجاج المبارك ﴿ حَبًّا ﴾ كالحنطة والشعير والذرة والأرز ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ وهو شامل لكل ما ينبت من الزروع، ومن الحشائش التي تأكلها الدواب والأنعام.

ومن الدلائل البيانية هو الإتيان بفعل الإخراج ﴿ لِّنُخْرِجَ ﴾ دون الإنبات، وذلك لأن السياق متعلق بإثبات إخراج الموتى من قبورهم، ليعطي دلالة: أنه كما أخرج الحب والنبات يُخرج الأموات من القبور. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: المقصود الإيماء إلى تصوير كيف بعث الناس من الأرض، إذ ذلك المقصد الأول من هذا الكلام، ألا ترى أنه لما كان المقصد الأول من آية سورة (ق) هو الامتنان جيء بفعل أنبتنا ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴾[1] بينما هنا ﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴾ مما يبين دقة وعمق مقاصد دلائل الألفاظ في القرآن العظيم. وفيه كذلك لفت الانتباه للتباين في أنواع ما يُخْرِجُ اللهُ تعالى بهذا الماء الثجاج مما يخص بني آدم من طعام الحبوب، وطعام غيرهم من المواشي، والدواب الأنعام. فمن رتب هذا الإطعام بهذه الدقة؟ ليستوفي جميع مخلوقاته من غير استثناء. ففيه شد الانتباه بالتفكير والتأمل في ذلك، فإنه يقود إلى التسبيح بالتنزيه والتعظيم لله سبحانه وتعالى، والإذعان له، وحمده وشكره، وطاعته، والإيمان بالغيب، الذي منه البعث والحساب والجزاء، والاهتداء بما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي التعميم بعد التخصيص بالحب والنبات، فقال تعالى ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴾ أي: وبساتين مُلْتَفَّة بعضها ببعض، فتداخلت أغصانها بسبب كثرتها، وقوة نموها. وقد وردت الجنة بصيغة الجمع ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ ليفيد الكثرة والتنوع، في ثمارها، وفواكهها، وألوانها، وأشكالها، وأحجامها، وارتفاعها. وقد أعطت دلالة ﴿ أَلۡفَافًا ﴾ تزاحمها من كثرتها، وتداخلها، فأعطاه وأضفى عليها ذلك جمالاً. ففيه إثارة الانتباه، مما يبين أهمية استثارة العقول نحو التفكر في مخلوقات الله تعالى، وفي تدبيره عَزَّ وجل، فإنها ترتقي بالعقول، وتقوي الإيمان، وتستثير النفوس للتعلق بالله تعالى. وتغرس في القلوب تعظيم الله تعالى، ومهابته، ورجاؤه، وشكره وطاعته عَزَّ وجل.

﴿ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٠٠/١٢)

لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾

وبعد أن ساق الله تعالى لعباده أدلة الإنعام والامتنان بما خلق من الخلق الذي يستوجب عبوديته وحده لا شريك له، والإيمان بالغيب، ومنه البعث والحساب، يتدرج بهم البيان إلى اثبات هذا البعث، وذلك بإظهار وبيان أحوال يوم القيامة. فقال تعالى ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴾ إن هذا اليوم الذي هو ﴿ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ هو موعد جَمْعُ العباد جميعاً، حين يفصل الله فيه بين العباد، ويتمايزون فيه بميزان العدل والحق، لأن من مقتضيات الفصل التمييز. فيتم فيه الحكم بين الخلائق، ويفصل فيه بين المؤمن والكافر، وقد أُكد سبحانه وتعالى ذلك بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يتأكد بها ما بعدها من السياق، الذي يثبت به يوم البعث، ويُبطل به بطلان من أنكره. بل وأشار إليه بحرف ﴿ كَانَ ﴾ لإفادة ثبوته وتحققه بما اقتضى حكم الله تعالى به.

وهو اليوم الذي كنتم فيه تمترون وتكذبون وتنكرون، فإنه ﴿ مِيقَـٰتًا ﴾ أي: وقتاً وميعاداً محدداً، من الوقت والزمن والحال والمكان لاجتماعهم مع بقية العباد جميعاً ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴾ أولهم وآخرهم، فلا يغيب ولا يتأخر منهم أحد عن ذلك اليوم. فإنه هو اليوم الذي يتمايز الناس فيه، فيظهرون للحساب والجزاء. لأن الفصل يكون بالحساب ثم الجزاء، فينفصل فيه أهل الطاعة والإيمان بما فازوا به من جنات النعيم، ويندحر فيه أهل الكفر والنفاق إلى النار وبئس المصير. فقد كانوا ينكرونه ويكذبون به في الدنيا. وفي هذا عرض واضح من الله سبحانه وتعالى لِمَا سيكون من حال المكذبين في الآخرة، بما يفيد أن عليكم أيها المكذبون باغتنام حياتكم الدنيا، فآمنوا بما رأيتم من الحجج والآيات التي تتعايشون معها في الدنيا، من خلق السماء والأرض وما بينهما، ومن تعاقب الليل والنهار، وما جعل من الكواكب والشمس الوهاجة، وما أنزل تبارك وتعالى من الماء الثجاج الذي تجري به السحب من مكان إلى مكان من الأرض. فإن الذي خلقكم وخلق هذا الكون قادر على كل شيء، ومنه البعث والحساب والجزاء. فآمنوا واتبعوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه خير لكم.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى عن يوم الفصل، بأنه ذلك الوقت الذي ينفخ الْمَلَك إسرافيل في الصور.

فقال تعالى ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ أي: عندما ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، وهو قرن عظيم، ينفخ فيه الملك إسرافيل عليه السلام نفخة واحدة. بما يدل على قوتها وكفايتها، فلا يحتاج إلى أن يكررها. فالنفخة الأولى يصعق ويموت جميع من في السماوات والأرض إلا من استثناهم الله تعالى، كما جاء في

سورة الزمر، قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ممن ثبته الله تعالى عند النفخة الأولى، فلم يصعق، فيبقى على ما هو عليه من الحياة. قيل أنهم: جبريل وميكائيل، وإسرافيل، ومَلَك الموت[١] ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ كما ورد ذلك أيضاً في سورة الزمر. وهي النفخة الثانية، نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فيقومون من قبورهم لحسابهم، وهم في كامل صورتهم التي كانوا عليه قبل الموت، حيث يُعيد الله تعالى أجسامهم، وأرواحهم، فإذا بهم يشاهدون مشهد يوم القيامة، الذي هو يوم البعث والنشور والحساب، ليأخذ كل أحد من العباد جزاءه الذي يستحقه من خير أو عذاب.

وحينها يأتون ذلك المشهد، كما قال تعالى ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ أي: جماعات، جماعات. فتعطي دلالة الأفواج: أنهم يأتون أمماً، أمماً. بما يفيد أن هذه هي الحال التي سيكون عليها العباد، والتي تدل على عظمة ربكم أيها الناس، ومع هذا تُنكرون البعث، وتشركون معه المخلوق الضعيف العاجز. فأين عقولكم؟ فإنها موعظة جليلة من الله سبحانه وتعالى، يصحح بها أفهام العباد الضالين عن الحق الظاهر البائن. مما يبين أن حجة الله تعالى قد ظهرت للجميع، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما يحدث في ذلك اليوم من الأهوال. فقال تعالى ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ فيومها تتفتح السماء أبواباً لنزول الملائكة. كما قال تعالى في سورة الفرقان ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ وفي هذا تحذير ووعيد للمتكبرين، والمُصِرّين على كفرهم وعنادهم. وكل ذلك البيان هو من لطفه عَزَّ وجل بعباده، من أجل طاعته، والحذر من معصيته، وإثبات تحقق عذابه على من عصاه.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بحال الجبال الشامخة التي كانت للأرض أوتاداً ورواسيا، فقال تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي: جُعِلَت الجبال الشامخة كالهباء، إذ يتم نسفها بعد ثبوتها وشموخها. كما قال تعالى في سورة المرسلات ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أي: وإذا الجبال أُخذت بالنسف السريع، فَدُكَّت حتى تساوت مع الأرض، فكانت كالحب من قوة النسف لها، فأصبحت كثيباً رملاً متجمعاً، ينهال صباً متساقطاً.

وبعد أن أظهر تبارك وتعالى ظواهر يوم القيامة، من النفخ في الصور، وتشقق السماء، ونسف الجبال، يشرع البيان الكريم في تفصيل شأن يوم الفصل. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي: أن جهنم

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٢٥٤)

ترصد أهلها المكذبين بها، والمنكرين للعذاب وللبعث، فقد كانوا في الدنيا مكذبين بيوم المعاد والرجوع إلى الله تعالى للحساب. وأفادت دلالة الترصد ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ الترقب لأهل النار، الذين أسماهم الله تعالى بالطغاة. فقال عَزَّ وجل ﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ فإن جهنم للمتمردين العاصين للمرسلين ﴿ مَـَٔابًا ﴾ أي: مرجعاً ومنزلاً ومصيرا.

ثم قال جَلَّ جلاله ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ أي: ماكثين في جهنم ﴿ أَحْقَابًا ﴾ أي: أزماناً، من الزمن. وأحقابا جمع حُقب، بما يفيد تعاقب الزمن عليهم في النار. فكلما مر حُقب لحقه حُقب آخر. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وقد اختلف أهل التأويل في مبلغ مدة الْحُقب، فقال بعضهم: مدة ثلاثمائة سنة، وقال آخرون: ثمانون سنة، وقيل: سبعون ألف سنة(١) وورد في تفسير الجلالين: دهوراً لا نهاية لها(٢) فهو بيان لتطاول الزمن الذي لا ينتهي بتعاقبه، فكلما انتهى حُقب لحقه حُقب آخر. ليفيد شدة الإنذار للعباد من النار.

ثم يزداد التشنيع لعذاب أهل النار، فيقول تبارك وتعالى ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أي: أنهم في أبعد ما يكونون عن الطيبات. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به(٣) فنفى عنهم كل طيب. ثم حصر أضداد ذلك لأهلها، فقال جَلَّ جلاله ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ فلا يجدون فيها ﴿ إِلَّا حَمِيمًا ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وَغَسَّاقًا ﴾ وهو صديد أهل النار. ذكر ابن زيد رحمه الله تعالى وغيره: أن الغساق: الصديد يخرج من جلود أهل النار، فيشربونه(٤) ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال عدله فيما أصابهم من العذاب. فقال جَلَّ جلاله ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أي: أن هذا العذاب جزاء عادلاً، ومتوافقاً مع ما كان منهم في الحياة الدنيا من الكفر، والتكذيب بالحجج التي جاء بها المرسلون من ربهم.

ثم يُفَصِّلُ الله تبارك وتعالى كفرهم الذي كانوا عليه في الدنيا، لإظهار العدل فيهم بما نالهم من العذاب، بأنه كان عدلاً فيهم بما يستحقون، وليفيد أيضاً تحذير الأحياء في كل زمن من هذا المصير، فقال سبحانه تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ إن هؤلاء الذين تتلقاهم جهنم بعذابها كانوا مستبعدين ومنكرين للبعث،

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٢٢-٢٧)
(٢) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٥٨٢)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٩٥)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/١٢٨-١٢٩)

والحساب والجزاء، وبالجنة والنار. وأيضاً كانوا منكرين لحجج الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ فقد كانوا مُنكرين مُكذبين بجميع الحجج والأدلة والآيات التي أظهرها لهم رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام. ومن دقائق البيان وقوة تأكيده أن نسب سبحانه وتعالى الآيات والحجج إليه عَزَّ وجل ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ كما أكد تبارك وتعالى تكذيبهم الصريح بتكرار صفة الفعل ﴿كِذَّابًا ﴾ الذي هو المفعول المطلق، والذي أفاد تأكيد تكذيبهم، ومبالغتهم في إنكار الحجج.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن أن حسابه ومجازاتهم كان بناء على تسجيل وإحصاء دقيق لكل ما كان منهم.

فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَكُلَّ شَىۡءٍ أَحۡصَيۡنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴾ فكل شيء من أعمالهم وأقوالهم كتبناه وسجلناه عليهم. بما يُثبت إنه عَزَّ وجل شاهد على خفايا العباد، وجميع ما كان منهم في الدنيا. فتحقق بذلك الإحصاء الدقيق لأعمالهم إحصاء دقيقاً. ليكون حسابهم وفق ما كان منهم. وفي هذا تنبيه لهم بأن يحذروا من ذلك اليوم بالإيمان والاتباع لدين الله تعالى. وهذا من رحمته وعدله سبحانه وتعالى بأن أظهر وبين للناس ما هم عليه، وما هم قادمون ومُقبلون عليه.

ومن دقائق السياق الكريم أن البيان قد استوفى كل ما كان منهم، فجملة ﴿ وَكُلَّ شَىۡءٍ ﴾ تدل على كمال الاستيفاء، للصغير والكبير من أفعاهم، وأقوالهم. كما أفاد الإحصاء ﴿أَحۡصَيۡنَـٰهُ ﴾ شدة ودقة الضبط، وزاد التوثيق ضبطاً لهذا الإحصاء بدلالة الكتابة ﴿أَحۡصَيۡنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴾ فهو مسجل كتابة في اللوح المحفوظ، وكذلك يستلم كل كافر كتابه بشماله، كما ورد ذلك في سورة الحاقة ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيۡتَنِى لَمۡ أُوتَ كِتَـٰبِيَهۡ ﴾ وهم أهل الشقاء والعذاب.

ومن عدل الله تعالى أن نسب الإحصاء له ﴿أَحۡصَيۡنَـٰهُ ﴾ لإفادة شدة ودقة العدل بما أوكله للملائكة الكرام الحفظة. فقد تم إحصاء ما أسلفوا مما عملوه في الدنيا، وقدموه للآخرة، وورد ذلك على وجه العموم، ليستوعب ويستوفي جميع ما قدمه الإنسان من خير أو شر، وما يقدمه من كفر أو إيمان، وما يقدمه من الطاعة بعمل الصالحات، وما يرتكبه من العصيان. فهو إحصاء مُوَثَّق.

ثم يزداد العذاب عليهم بالتوبيخ والتقريع والإهانة لهم. فيُقَال لهم ﴿ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ فذوقوا العذاب، ولن يكون حالكم إلا بالزيادة من هذا العذاب، لإفادة قطع الرجاء من التخفيف. وفي هذا

توبيخ وترهيب وإهانة لهم. وقد أعطت دلالة ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ الاستطعام والتذوق، إشارة وبياناً لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق. فكأن شدة العذاب من قوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة. وكل هذا هو لقاء كفركم، ومقابل عنادكم. وفي ذلك موعظة وترهيب لكل كافر إلى يوم القيامة، بأن يحذر من عذاب هذا اليوم، فيغتنم فرصة حياته في الدنيا بطاعة الله تعالى، والدخول في الإسلام.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى حال المكذبين، وما لهم من العذاب العادل وفق ما كان منهم، ينتقل السياق الكريم من الرحمن الرحيم إلى بيان ما أعده لعباده المتقين. فقال تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ إن للمتقين فوزاً عظيماً، ومنزلة وكرامة جليلة عند ربهم، بنجاتهم من النار، ودخولهم الجنات التي يتنعمون فيها نعيماً دائماً لا ينتهي أبداً. وقد وردت الجنة بصيغة الجمع، بما يفيد كثرة بساتينها وحدائقها. كما أسماها ربنا تبارك وتعالى بالمفاز ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ التي تفيد أنها نعيم أبدي، قد اتصف بالفوز، الذي لا ينتهي. وقد انتفى منها وعنها جميع المكدرات. وأن هذا خاص بالمتقين ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ وهم الذين يخافون الله تعالى، ويرجون رحمته، فيبتعدون عن المعصية، ويسارعون للطاعة والامتثال، وإذا اغترفوا ذنباً سارعوا للتوبة والمغفرة. وهم الذين امتلأت قلوبهم بالتقوى، فلا يراقب أحدهم إلا الله تبارك وتعالى، حتى وإن لم يشاهده أحد من الخلق، فإن رقيبه هو الله جَلَّ جلاله وليس العباد. بما يدل على كمال الذل والطاعة والخوف من الله تعالى. فالمتقين هم أصحاب القلوب الممتلئة بالخوف من الرحمن أينما حلوا وكانوا، وفي أي شيء كانوا، فهم يهابون ويخافون ربهم عَزَّ وجل أينما كانوا وحيثما حلوا وارتحلوا، وإن لم يراهم أحد من الخلق.

ثم شرع البيان الكريم في وصف هذا الفوز العظيم، فقال تعالى ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾ فلهم حدائق من البساتين المتنوعة بكثرة الأشجار، والفواكه والأنهار. وخص سبحانه وتعالى الأعناب بالذكر من بين الفواكه.

﴿ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴾ والأعناب، جمع عِنب، وهي الفاكهة المعروفة برطوبتها وليونتها، وعذوبة طعمها. فتخصيصها بالذكر دليل على كرامتها، وقوة تفوق محبتها عند أهل الجنة. ثم ذكر جَلَّ جلاله أن من نعيم الجنة: النواهد من النساء، فقال تعالى ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴾ وهن النواهد من الشابات، المستويات في السن. فالكواعب، هي التي نهدت، وكعب ثديها. والأتراب تعني: المتماثلات في السن، أي: الأقران في السن. وكذلك من مفردات نعيم الجنة هو الشراب، حيث قال تعالى ﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴾ أي: كأساً ممتلئاً، ومتتابعاً ومتعاقباً. بما يبين عظمة النعيم، الذي لا تعب ولا نصب فيه.

ومن طيب شرب كؤوسها ومجالسها أن أهل الجنة ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ فلا يسمعون من بعضهم البعض كلاماً فاسداً لا فائدة فيه، ولا الكذب من الكلام، فهذا النفي يفيد إثبات أضداه، بأنهم يسمعون الكلام الطيب الصحيح الصادق فقط. ثم يخبر الله تعالى عن سبب هذا الجزاء لأهل الجنة. فقال تعالى ﴿ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴾ فإنه ثواب وجزاء وعطاء من ربك لهؤلاء المتقين ﴿ عَطَآءً حِسَابٗا ﴾ وافراً، وكثيراً. فوصف هذا العطاء بأنه ﴿ حِسَابٗا ﴾ أي: حساباً كثيراً ومستوفياً لما عملوا، حتى الكفاية. فتقول: حاسبت فلاناً، أي: أعطيته كامل ما يستحق. فإن دلالة ﴿ عَطَآءً حِسَابٗا ﴾ تفيد العطاء المستوفي، الذي لم ينقصه شيء أبداً. مما يفيد كمال نعيم أهل الجنة إلى درجة الكفاية التي لا يتمنون غيرها، ولا أكثر مما هم فيه من النعيم.

ثم يصف الله تعالى كريم عطائه بإظهار وبيان جلالة وعظيم ملكه. فقال عَزَّ وجل ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴾ فالذي أعطى هذا العطاء العظيم هو من لَهُ كمال الملك، الذي يؤكد ويبين أن عطاءه أعظم عطاء، فليس هناك عطاء أفضل وأكرم. فيخبر سبحانه وتعالى بما يبين ويؤكد عظمته عَزَّ وجل، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴾ فإن ربكم هو رب الكون كله، الذي له كمال الملك، وكمال الربوبية، وكمال الألوهية، فهو ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ وقد جمع قوله عَزَّ وجل ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ جميع الخلائق بأكملها. فقد تضمنت دلالة ﴿ رَّبِّ ﴾ أنه المألوه والمالك، والقائم على شأن ملكه. لتفيد في حق الله تعالى: الإيجاد والتكوين والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما حملت وما حوت. كما جمعت

كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جميع ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يشاهده مما غاب عنه، فإن مما يشاهده الإنسان الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما لا يراه كالملائكة، ومما يحسه الإنسان ولا يراه كالرياح والهواء، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، لقصور حواسهم عنه.

وأما دلالة ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدُبُّ عليها وما يجري فيها، وما بداخلها، وما يخرج منها، وما يُستخرج منها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، والمعادن وأنواعها، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى. وأكدت ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما يراه الإنسان ومما لا يراه، ومما يحسه ولا يراه كالهواء.

ومن دقائق البيان: أن كل شيء ارتفع عن الأرض فقد سما، فهو داخل في السماء، إلا أن الله تعالى خص ما بين السماء والأرض بالذكر ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ للفت الانتباه بالتخصيص. فخص تلك الأجرام بالذكر لما فيها من عجائب قدرته. فقد استقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، كما ارتفعت عن الأرض فلم تعتمد عليها. كالسحاب، والكواكب، والشمس، والقمر، والهواء الحار، والهواء البارد. فإنها متعلقة بين السماء والأرض. فإن في ذلك بيان لعظمة الخلق والخالق، وعظمة التدبير والإبداع، وعظمة في أسلوب التعليم، فسبحان الله تعالى الذي سيرها بين السماء والأرض بقدرته، وعظيم إبداعه.

ثم نوه تبارك وتعالى باسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي خلق ودَبَّر السماوات والأرض وما بينهما، فشملت رحمته كل شيء. وهو الاسم الذي افتتح الله تبارك وتعالى به سورة الرحمن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الذي يحمل معنى: ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع خلقه تبارك وتعالى، بما يغدق عليهم من الأرزاق والخير، ويرسل عليهم الرسل، وينزل الكتب، ويظهر لهم آياته، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يكرر عليهم الإنذار بالنُّذُرِ. ولا يؤاخذهم إلا بعد ظهور الحق، وإصرارهم على المعصية. وفي ذلك إظهار وتعريف بأن الرحمن هو اسم من أسماء الله تعالى، والذي انكره المشركون كما في سورة الفرقان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ فإذا وجههم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجعلوا سجودهم وخضوعهم وتوحيدهم خالصاً لله تعالى الرحمن الرحيم. دون الآلهة والأوثان، استنكروا ذلك.

ثم يذكر جَلَّ جلاله عظيم عظمته، فيقول عَزَّ وجل ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ فلا أحد يمتلك القدرة على مخاطبته سبحانه وتعالى إلا بإذن منه. لجلاله وجلالة مكانته عَزَّ وجل. فليس لأحد له من الله تعالى أن

يكلمه كما يريد. بما يفيد أن كل شيء هو تحت سلطانه عَزَّ وجل، وأنه ذو الهيبة والمهابة، وأن الجميع مخلوق له، وعبيد له، وهو وحده لا شريك له، وله الملك والتدبير والقهر والسلطان.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظمته وجلالته في شأن صفوف الملائكة رهبة وإجلالاً له سبحانه وتعالى، بل وفي صمت حتى يأذن الله عَزَّ وجل لمن يشاء. فقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ يوم يقوم ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله الشعبي، وسعيد بن جبير، والضحاك[1] وقيل غير هذا ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ أي: ويوم تَصُف الملائكة ﴿ صَفًّا ﴾ أي: منظماً، بعضهم بجانب بعض، وبما يمثل الخضوع والخنوع والخشوع لله تعالى. وفي إفراد ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ ثم ما بعده من الملائكة، ما يدل على مكانة ومنزلة جبريل عليه السلام. ثم إنهم ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ هيبة وإجلالاً لله عَزَّ وجل. فلا أحد منهم يتكلم بأي كلمة، لمهابته عَزَّ في علاه. ثم استثنى من ذلك ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ فهما شرطان: الأول: الإذن. ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي: من أعطاه الرحمن الرحيم الإذن بالكلام. والشرط الثاني: أن يكون قوله حق ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي: حقاً، يرضاه الله تعالى. فلا منطوق بشيء يتعارض مع مراد الله تعالى من القول. بما يبين جلال وعظمة الله تعالى، ومهابته عَزَّ وجل.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله عَزَّ وجل أخبر عن خلقه، أنهم لا يتكلمون يوم القيامة، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً إلا مَن أذن له منهم في الكلام. وقال صواباً. فالواجب أن يُقال كما أخبرنا. إذ لم يخبرنا في كتابه، ولا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، أنه عني بذلك نوعاً من أنواع الصواب، والظاهر محتمل جميعه[2] يقصد بها: الأقوال في ذلك، بأنها: الشفاعة، وقيل الشهادة بالتوحيد، وقيل: قال حقاً في الدنيا، وعمل به. مما يبين مهابة الموقف، وعظيم جلال الله تعالى.

ثم يصف سبحانه وتعالى ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، فقال عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ فإن ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، هو ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: الكائن والواقع صدقاً بلا شك ولا ريب. ثم يعظ الله تعالى عباده بأحسن ما يجب عليهم، وأفضل ما يختارون لأنفسهم

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٨/٨)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢/٢٠)

حيال ذلك اليوم الحق، الذي لا ريب ولا شك في وقوعه، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ فمن أراد اتخذ إلى ربه السبيل والطريق الذي يرجع به إلى ربه مرجعاً مقبولاً ﴿ مَـَٔابًا ﴾ أي: رجوعاً مقبولاً عنده، وذلك بالعمل الصالح، المتمثل بطاعته عَزَّ وجل واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان العظيم هو تعظيم ذلك اليوم باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ لإفادة التضخيم والتفخيم، الرهيب له، فإنه ليس كأي يوم من الأيام، فهو يوم موصوف بالحق، وبما يقع فيه من الحق والعدل، الذي لا ظلم فيه ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ فإن أمر وقوعه يقيناً، وحقاً وصواباً. ثم أورد سبحانه وتعالى ما يخص اتخاذ الطريق الصحيح بدلالة ﴿ ٱتَّخَذَ ﴾ والتي تدل على قوة التمسك. كما أظهر البيان الإخلاص والمتابعة معاً. ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾ فلم يكن اتخاذه إلا إخلاصاً لله تعالى ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ ﴾ وليس لغيره. وأعطت دلالة ﴿ مَـَٔابًا ﴾ المرجع بالعمل الصالح الذي أكد وجوب العمل به بدلالة ﴿ ٱتَّخَذَ ﴾ كما أفاد البيان أن للإنسان مشيئة، يحاسب عليها ﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ فأنت أيها الإنسان لك أن تختار المآب إلى ربك بطاعته، أو أن تسلك مسالك أهل الكفر. حتى يكون الحساب عدلاً في العباد.

ثم يختم الله تعالى سورة النبأ بموعظة تحذيرية عظيمة. فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ فيا أيها الناس إنا حذرناكم بالبيان الواضح. فلا يلوم كل أحد منكم إلا نفسه ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ إنا حذرناكم بالبيان والكتب، وبخاتمة المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاءكم به من الحجج والبراهين، من أن هناك عذاب قريب لمن كفر، وصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى. وقد تصدر البيان ضمير المتكلم ﴿ إِنَّآ ﴾ والذي أظهر عظمة وجلال المتكلم سبحانه وتعالى، وأهمية ما تكلم عنه. والتعظيم والتفخيم والإجلال له عَزَّ في علاه. ثم تلاه الإنذار ﴿ أَنذَرْنَـٰكُمْ ﴾ الذي التصق بحرف الْمُخَاطِب للعباد، وهو الله سبحانه وتعالى، ليفيد أنه إنذار من ربكم عَزَّ وجل مباشرة. ووصفه بالقرب الزمني، فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ فإنه ليس ببعيد الزمن والوقت. فإن يوم القيامة ليس ببعيد. بما يفيد شدة وقوة التحذير من الله الرحمن الرحيم. والإنذار من الشر لا يكون إلا ممن اتصف بالرحمة، فيحذر الرحمن الرحيم عباده من شر ذلك اليوم. مما يبين أن الله تعالى رحمن رحيم، غير أن بعض العباد مستكبر على الحق، ومستعجل في تلبية رغبات شهواته، وأطماعه الزائلة.

ثم يخبر الله تعالى بأنه في ذلك اليوم تُعرض أعمال العباد عليهم، كل بما كسب، مما كان منهم من الخير أو الشر. فقال تعالى ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ ذلك اليوم ينظر المرء صحيفته التي يستلمها، فقال تعالى ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فينظر إلى النتيجة التي اكتسبها، مما قدمه وأسلفه من أعمال في حياته الدنيا، وما هو قادم عليه، إما الجنة أو النار.

وقد أظهر الله تعالى ما قدمه الإنسان بأنه من كسب الأيدي ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أي: من صنيعهم، وعلى اعتبار أن الأيدي هي القوة للإنسان في الأفعال والإحداث بما يريد من التغيير أو الهدم، أو الإنشاء، وهي كناية عن كل ما يكون من الإنسان. لأن الأيدي هي الأظهر والْمُظْهِر لما يكون من الإنسان من القول والعمل، فحتى القول من الإنسان هو بمثابة المحسوس، لِمَا يُحدثه القول من الأثر في الغير. فيزداد البيان بذلك وضوحاً واكتمالاً واستيفاء. كما عُزز ذلك بصفة التقديم وهو التحصيل والكسب ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فإن تحصيل المصائب والذنوب والخير كله بما كسبت يد الإنسان، فلم تكن من غيره عليه، ولم تأته المصيبة من غير سبب. لتفيد تحذير الإنسان من نفسه، فهو الجاني والظالم لنفسه. وفي هذا دقة التحليل في إظهار العلاقة بين الإنسان وبين ما يحدث له مما يكره، أو مما يُحب. وبما يبين كذلك وجُوب الاستقامة حتى تستقيم أمور العبد، فيبتعد عن كل ما نهى الله تعالى عنه، والإتيان بما أمر الله تعالى به.

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بحال الكافر في تلك اللحظة الحاسمة ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾ فحينها يتمنى الكافر هذه الأمنية: بأن كان تراباً. فلم يُبعث، فَيرى مآله الذي لا يستطيع معالجته بأي وسيلة. فهي حسرة تشتعل في نفسه، وندامة لا يستطيع تصحيحها وعلاجها. ليفيد الإنذار من أن يكون حال الإنسان ذلك الحال. فهي موعظة واعظة من الرحمن الرحيم لمن أراد السلامة والغنيمة، والفوز بالجنة والنجاة من النار. ونسأل الله تعالى حُسن الخاتمة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، والمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة النبأ. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.